اتجاهات الأدب وأهم حواضره فى العصر العباسى

للأستاذ محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم

١

إن الأدباء كسائر الناس يسعون للحياة ، وأروج سلعهم الأدب يعرضونه ، ويتوفرون عليه حيث يهنأ لهم العيش ، وتحوطهم رعاية الخلفاء ومن إليهم من الأمراء والعظماء ، فليس عجيبا أن يتحول الأدب إلى حيث تستقر السيادة ، وأن يؤم الأدباء حواضر الملك ، ويتزاحموا على أندية الخلافة ، ودور الأمارة ماوجدوا لبضاعتهم نفاقا ، ولآدابهم تقديرا :

تسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء

البصرة والكوفة [1] — قامت الدولة العباسية وقد كانت حواضر الثقافة العربية منتثرة فى أنحاء الدولة العربية ، وكانت ألوية الزعامة الأدبية معقودة للبصرة والكوفة ، وفيهما أثمرت قرائح العلماء ، وأينعت رياض الأدب ، واشتهرت مدرستاهما ومهدتا طريق العلوم الدينية واللسانية ، وكان لرجالها الصيت الذائع ، والأثر البالغ فى خدمة اللغة وإنضاج علومها ، وطالما احتدم الجدال بين فرسان هاتين الحلبتين ، وكانت البصرة لوقوعها بجانب (المربد) عكاظ الإسلام ، وقربها من البادية تعتمد على الرواية ، ولا تميل إلى الأخذ بالقياس إلا حين يعوزها السماع ، وعلى العكس من ذلك كانت الكوفة لبعدها عن البادية تجنح إلى القياس ، وتؤثره كثيرا على السماع ، وكان الخلفاء العباسيون يشجعون علماء الكوفة ، ويؤثرون آراءهم لأنهم شيعتهم وأقرب إليهم من أهل البصرة ، ولأن البيعة تمت لآل العباس

(١) روى (ياقوت) فى معجم البلدان أن تمصير البصرة كان سنة ١٤ هـ قبل الكوفة بستة أشهر .

بالكوفة ، ولقد كان لعلماء المصرين أثر ظاهر فى قواعد النحو والصرف ألف العلماء فيه كتبا واسعة ، ومن أجمع هذه الكتب كتاب « الأشباه والنظائر » لجلال الدين السيوطى الذى أحصى مسائل الخلاف فى مائة مسألة وثنتين ، وقد سبقه إلى التأليف فى هذا الموضوع كمال الدين الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف » ، وتلك المسائل مشهورة مذكورة فى أمهات كتب اللغة والنحو والصرف وإليك بعضا منها : —

(١) يرى البصريون أن الفعل مشتق من المصدر ، ويذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل .

(٢) يمنع البصريون أن يجمع نحو طلحة بالواو والنون ، ويجيز الكوفيون ذلك فيقولون (طلحون) رفعا ، و (طلحين) نصبا وجرا .

(٣) نعم وبئس فعلان جامدان عند البصريين واسمان عند الكوفيين .

(٤) إذا وقع المصدر نعتا نحو (هذا رجل عدل) فالبصريون لا يؤولون المصدر بل يعتبرون الكلام من قبيل المبالغة حتى كأن الرجل هو العدل نفسه ، وأما الكوفيون فيؤولونه بالمشتق فكأن الكلام (هذا رجل عادل) .

ولكل من الفريقين أدلته المبسوطة فى مظانها ، على أنه من الثابت أن البصرة أسبق اشتغالا بعلم النحو من الكوفة .

وقد نبغ فى البصرة والكوفة أكثر الأدباء والرواة ، وبناة النهضة فى العلوم الشرعية واللسانية ، وحسب (البصرة) أن يكون من علمائها نابغة العرب : (الخليل بن أحمد) واضع العروض ، و (سيبويه) شيخ النحاة وصاحب (الكتاب) الذى وضعه فى النحو ولم يسبق بمثله ، والذى اشتهر أمره بين العلماء فى القديم والحديث حتى إذا قيل (قرأ فلان الكتاب) كان المعنى كتاب سيبويه وكان (المبرد) إذا طلب منه أحد أن يقرأ عليه (الكتاب) يقول له : (هل ركبت البحر ؟ !) تعظيما لأمر الكتاب وتبيانا لفضله .

وحسب (الكوفة) أن يكون من علمائها شيخ الفقهاء الإمام (أبو حنيفة النعمان) وإماما اللغة الجليلان : على بن حمزة (الكسائى) . وأبو زكريا (الفراء)

وهما اللذان قال فيهما أبو بكر الأنبارى : « لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس » .

ولقد كان بين مدرستى البصرة والكوفة تحاسد وتنافس شديد وكانت كل منهما تحاول أن تظهر على الأخرى . فتقوم بينهما حروب جدلية طويلة ، تخرج منها اللغة ظافرة على كل حال ، ويحدثنا التاريخ عن كثير من مظاهر هذه المنافسة ، وفى كثير منها طرافة ونوع من اللذة الروحية . وإليك بعض هذه المظاهر :

(١) روى أن سيبويه والكسائى اجتمعا فى مجلس (يحيى بن خالد) وتناظرا فسأل الكسائى سيبويه : ما تقول فى قول العرب :

« كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى (أو) فإذا هو إياها » ؟ فقال سيبويه :

(فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب) ، فقال الكسائى : العرب ترفع الضمير وتنصبه . (أى تقول فاذا هو هى (و) فاذا هو إياها) ثم اتفق الطرفان على أن يتحاكما إلى الأعراب ، وكان بعضهم بباب (يحيى) فسئلوا فوافقوا الكسائى ، واستكان سيبويه ، على أن الكسائى ترفق بسيبويه واستعطف له (يحيى بن خالد) وقال له : (وفد عليك مؤملا فلا ترده خائباً) فأعطاه (يحيى) عشرة آلاف درهم ولم يمر علماء البصرة بهذه المسألة بلا معارضة ؛ وقد التمس النحاة لجواز النصب وجوها شتى تراها مبسوطة فى كتاب المغنى لابن هشام .

(٢) روى أن (بشار بن برد) البصرى . شهد مجلس الخليفة (المهدى) وهو حافل بالشعراء ، ومنهم . أشجع السُّلَمى وأبو العتاهية ، فسمع (بشار) كلام أبى العتاهية ، فقال لأشجع : يا أخا سليم أهذا ذلك الكوفى المنقب ؟ قال نعم ، قال بشار لاجزى الله خيراً من جمعنا معه ، ثم قام أبو العتاهية ينشد الخليفة قصيدته التى مطلعها :

ألا ما لسيدتى مالها أدلاً فأحملَ إدلالها ؟
وإلا ففيم تجنت وما جنيت ؟ سقى الله أطلالها

فاسترذلها (بشار) ثم اندفع أبو العتاهية فى انشاده حتى قال :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فهنالك لم يطق (بشار) صبرا على كتم إعجابه وحسده ، فقال لمن بجانبه : أترى أمير المؤمنين لم يَطِرْ عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفى ؟! وهكذا ظل المصران العظيمان يتنافسان فى خدمة الأدب ، ويتباريان فى انضاج علوم اللغة ، وظلت لهما الزعامة على سائر الحواضر الأدبية . حتى نبُه شأن (بغداد) وهبت أعاصير فتنتى الزنج والقرامطة الذين عاثوا فى الأرض فسادا ، بما خربوا ودمروا وبما نشروا من أباطيل ، فجلا من بقى من المصريّن إلى (دار السلام) .

المدينة المنورة والفسطاط — ولقد كان إلى جانب مدرستى البصرة والكوفة فى أوائل العصر العباسى مدرستا المدينة المنورة والفسطاط بمصر ، وكان لكل منهما شأن ، فى خدمة اللغة ونشر العلوم الدينية والأدبية ، وما زال التاريخ يعرف لهما ذلك الفضل كلما ذكر من علماء الحجاز (مالكَ بنَ أنس) فقيه الحجاز ، وإمامَ دار الهجرة ، وصاحبَ الموطأ ، وحجةَ الله فى أرضه ، أو عَرَض لأخبار (أبى تمام) الناشىء فى جامع عمرو بالفسطاط ، أو تحدث عن عالم قريش وحَبْرها (الامام محمد بن إدريس الشافعى) الذى ألقى بمصر عصا التسيار ، وأملى فى جامعها مذهبه الجديد . أو الامام (الليث بن سعد) صاحب الامام مالك . أو العلامة (أبى يعقوب يوسف بن يحيى المصرى البُوَيطى) الذى أجَلّه الامام الشافعى ، واستخلفه على التدريس والفُتْيا الى غير أولئك من الأفاضل الأعلام .

بغداد [1] — أما (دار السلام) فحدث عنها ولا حرج . فقد انتقلت الزعامة الأدبية إليها بعد المصريْن ، واضطلعت بأعباء الثقافه ، وازدانت بأبهة الخلافة ،

(١) اختطها أبو العباس السفاح قرب الكوفة سنة ١٤٥ هـ ونزلها سنة ١٤٩ ومصرها وجعلها مدينة (أبو جعفر المنصور) ـ معجم البلدان لياقوت .

وحفلت بالعلم والعلماء ، وزخرت بالأدب والأدباء ، وأصبحت ملتقى الأجناس والثقافات ، ومجتمع العلوم والحضارات ، ثم امتزجت فى مكتباتها وأنديتها ومدارسها ، ثقافة العرب بثقافات الفرس واليونان والسريان والرومان والهند والصين ، وفى رعاية خلفائها وأمرائها التقت الحضارتان السامية والآرية ، واطردت النهضة الأدبية والعلمية ، حتى تألق نورها ، فعم أرجاء الدولة العربية ، وحسب هذه النهضة أن يكون مذكى نارها (أبا جعفر المنصور) ذلك الخليفة الذى كان واحد عصره علما وفقها ، وكان على حرصه لا يضن بشىء من المال فى سبيل العلم.

وحسبك أن تعرف أن (الرشيد) ألحق بكل مسجد فى بغداد مدرسة لتعليم العلوم المختلفة ؛ وحرص على أن يكون مجلسه حافلا بالأدباء والعلماء ، حتى إذا ما أراد الحج صحبه منهم مائة عالم .

ولقد تتشعب بنا مناهج القول إذا ما حاولنا أن نلم فى هذه العجالة بكل مظاهر الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية فى (دار السلام) ، فحسبنا أن نوجه النظر إلى (دار الحكمة) التى أنشأها (المأمون) ، وحشد إليها أئمة اللغة ، وقادة الفكر من أقطار البلاد ، وجمع فيها ما ألف فى العلم والأدب لذلك العهد ، من كتب عربية أو يونانية ، وأجاز على ترجمة الكتاب النفيس إلى العربية بوزنه ذهبا ، واتخذ من (دار الحكمة) ندوة علمية أدبية ، وأشرف بنفسه على بحوثها ، وشارك العلماء فيها ، حتى قامت بالنصيب الأوفر فى ترجمة العلوم إلى اللغة العربية ، وقد روى التاريخ أنه كان من شروط صلح (المأمون) مع (ميشيل الثالث) ملك الروم أن يأخذ المسلمون مكتبة من مكتبات (الآستانة) ، وليس بعد هذا عناية بالعلم واهتمام بنشره ، فليس عجيبا أن تكون (بغداد) فى عهد (الرشيد والمأمون) مثابة للعلم ، وملجأ للأدباء ، وندوة للبحث ، ومجالا للمناظرة ، يقصدها كل أديب أو عالم من مشارق الأرض ومغاربها ، فيجد فيها قادة الأدب ضالتهم ، ورادة العلم غايتهم ، والحق أنه قد أتيحت (لبغداد) كل أسباب المجد ، فموقعها وسط بلاد الدولة جعلها ملتقى كل مشرق ومغرب من الأجناس المختلفة ، وأرباب البيان وقادة العلم ، وصيرها مجتمع الحضارات التى يغذى بعضها بعضا ، واجتذب إليها أئمة اللغة من أطراف الدولة ، ومراكز الثقافة الاسلامية كالبصرة والكوفة

والمدينة المنورة وغيرها ، وقيام الخلافة بين ربوعها ، جعلها مهبط الوفود ، ومقصد كل ذى حاجة ؛ ووجود الخلفاء الأماجد (كالمنصور وأولاده وأحفاده) أذكى فيها شعلة العلم والعرفان ، وغذّى بين جنباتها رياض العلوم من قديمة وحديثة إسلامية كانت أو دخيلة ، وساعد على كل ذلك ما قام بها من بيوت الامارة والعلم والأدب ، تلك التى تعاونت مع دور الخلافة على إنهاض المعارف ، وتقوية الحركة العلمية . وماظنك بالبرامكة ومنهم أهل البيان ، وفحول البلاغة ؟ ! بل ماظنك بآل (وَهب) وهم قرة عين الأدب وواسطة عقد الزمان؟ وإذا أغفلنا هنا الافاضة فى شأن البرامكة فما ذلك إلا لاستفاضة أخبارهم . ونباهة شأنهم حتى لايحتاج أمرهم إلى إطناب وفضلهم إلى أطراء ، ويكفى أن يكون منهم شيوخ الكتاب وأساطين الوزارة يحيى بن خالد . وولداه (جعفر والفضل) ومهما تكن أسباب نكبتهم ، فان لهم فضلا على العلم والأدب ، لا يستطيع انكاره الزمان . ونحن هنا انما ننظر اليهم من ناحية الأدب لا من ناحية السياسة ، فحسبنا فى شأن البرامكة ما تقدم ، ولكنا نرى لزاما أن ننوه بآل (وهب) فلقد كانت الكتابة والأدب من المزايا العريقة فى هذا البيت ، كتب أفراده للخلفاء الأمويين من لدن معاوية ، ثم كتبوا لبنى العباس فخدموا المنصور والمهدى وآل برمك والفضل بن سهل (ذا الرياستين) ، وهو الذى يقول (عجبت لمن كان معه وهب كيف تهمه نفسه !) ولما مات (وهب بن سعيد) فى إحدى سفراته ، كان ولداه (الحسن وسليمان) فى كفالة ثقة سرى من أهل (واسط) يتحرف بالجزارة وكان لهما مال خلفه أبوهما ، فأراد الوصى أن يسلك بهما ما يحبان من سبل الحياة ، وخيّرهما بين أن يشترى لهما ضياعا وأن يعلمهما الجزارة ، ولكن طموحا إلى المجد أنطقهما بما بهره وأعجبه ، فقالا : مالنا ولحرف العوام ؟ ! انما صناعتنا جزّ أعناق الرجال فى القراطيس (يريدان الكتابة) ، فضمهما إلى من يؤدبهما ، ثم رأيا أن (واسط) لا تقوم بما يؤملان من علم ومنزلة فجهزهما إلى (بغداد) فنبه فيها شأنهما ، واتصلا بالمأمون ، وكتبا معاً فى ديوان الرسائل عنده . وما زال أمرهما فى صعود حتى أدركا ما تطلعا اليه ، فوزر (سليمان) للمهتدى ، ثم للمعتمد على الله . وكتب (الحسن) لمحمد ابن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل .

وكان (سليمان والحسن) من أقدر كتاب الرسائل ، ومن أعيان عصرهما علما وأدبا ، وكرماونبلا وقد سمح لهما أدبهما ومكانهما فى الدولة أن يبسطا يد الجود والنوال ، ويمهدا سبل الرخاء أمام كثير من الأدباء والشعراء . فكانا من دعائم الأدب فى ذلك الزمان ، وحسبك دليلا على ذلك أن يكون من مداحهما (أبو تمام والبحترى) ومن فى طبقتهما من الشعراء :

هذا أبو تمام يقول فى سليمان بن وهب :

كل شِعْبٍ كنتم به آل وَهب فهو شِعْبي وشِعْب كل أديب
إن قلبي لكم لكالكبد الحر ى وقلبي لغيركم كالقلوب

وهذا أبو عبادة (البحترى) يقول فيه :

كأن آراءه والحزم يتبعها تُريه كلّ خفى وهو إعلان
ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وروى أن (ابن يزيد بن محمد المهلبى) وفد على (سليمان) فى وزارته ، وأنشد :

وهبتم لنا يا آل وهب مودةً فأبقت لنا مالا ومجداً يؤثّل
فمن كان للآثام والذل أرضُــه فأرضكم للأجر والعزّ موئل
رأى الناس فوق المجد مقدار فضلكم فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
يُقَصِّرُ عن مسعاتكم كل آخرٍ وما فاتكم ممن تقدم أول

فقطع عليه سليمان إنشاده وقال : لا تقل ذلك . أصلحك الله ، إنما أنت عندى كما قال عمارة بن عقيل :

أقهقه مسروراً إذا أنت سالم وأبكى من الأشواق حين تغيب

ثم قضى جميع حاجاته ، وقال لولم أفد مما نالنى من أمير المؤمنين إلا شكرك لرأيت بذلك جنَابى ممْرِعا وزرعى مُرتعاً ؛ كان الحسن وسليمان أريحيين يهتزان للندى ، كما كانا أديبين ؛ فلسليمان ديوان رسائل ، وللحسن شعر حسن ، وكلاهما كاتب بليغ مترسل ، ومن شعر الحسن فى رثاء أبى تمام :

سقى بالموصل القبر الغريبا سحائب ينتحبن له نحيبا
فان تراب ذاك القبر يحوى حبيبا كان يدعى لى حبيبا

(يتبع) « محمود البشبيشى »